الفصل االواحد والعشرون

أنا أقوى منهم

-يجب أن تفكر في مستقبلك ياأحمد.. المقدم حميد يحبك، ولا يحمل لك الاّ الإحترام..

-يحبني! أهي قضية عواطف، حب أو كره؟ نحن في نضال مبـادئ، ولا قيمة عندي للعواطف الشخصية أبدا..

-ومستقبلك وعائلتك وطفلاك!

-لا تفكر في مستقبلي.. انني أفضل أن أبيع الفلافل عند باب التجهيز...!

-سأسهل لك طريقة تخرج فيها من البلاد موفور الكرامة.. اذهب سـفيرا الى أي بلد تختار.. انني لا أظنهم يعارضون..

-أيرشونني؟ كم تخطئ في فهمي يا عبد الوهاب!..انني إنسان تحررت من عبودية المال والمجد والمناصب..ان سعادتي الكبرى أن أكون منـسجما مـع نفسي، وأقول كلمة الحق كما أفهمها، وأعمل لسعادة مواطني .. انني أحترم آلام الشرفاء من الناس الذين يضطهدون من أجل آرائهم، ويعـاملون أسـوأ مـن المجرمين، ولا يمكنني أن أشتري بظلمهم الثياب الفاخرة تتأنق بهـا زوجتـي، والمنصب الرفيع تتباهى به، أو سيارة فارهة تركن عند بابي، أو رياشا فـاخرا يثرثر عن رشوتي..لا كان المنصب الذي يسرق مني حريتي وضميري!..

-أقول لك يا أحمد أنهم سيغيرون مـوقفهم، ويتخـذون مواقـف جديـدة ويعتمدون على القوى التقدمية.. انهم يشعرون بخطئهم وعزلتهم.. فان لم يفعلوا انسحبنا نحن أيضا من الحكم..

-لا تخدع نفسك يا عبد الوهاب! أنتم كمن يريد أن يقـبض علـى غبـار طحين تطاير في الهواء ليصنع منه رغيفا.. هذا الحكم لا يعتمد بجوهره علـى المنتجين بأيديهم ولا بعقولهم.. تطور البلد لا يهمهم! حكم قـائم علـى الفـساد

والرشوى والسوط.. ان اتخذ موقفا جديدا يكون قد اضطر اليه تحـت ضـغط الظروف، فلن يكون هذا الموقف سوى ترقيع ثوب مليء بالثقوب.. ممثلون له هم أنفسهم.. حتى لو رفعوا لواء التقدم فلن يكون هذا الاّ شعارا يتزينـون بـه! ماذا تنتظر من حكم فردي؟ انه لا يرضى في حاشـيته الاّ الأكتـاف الواطئـة والألسنة المداهنة.. انه يعلّق على رؤوس صلعاء شعرا مستعارا وسـيقع عنـد أول شدة.. شتان بينه وبين الشعر الذي ينبت من الرأس!

وضحك الأخوان وأردف أحمد:

-حاولوا أن تطالبوا بقضية صميمية وسترون أين يقف منكم.. لن يـصبح حالكم أفضل من حالنا..

-نحن مصرون على أن نقف موقفا حازما.. لقد خيب هذا الحكم الكثير من آمالنا.. كل الأمور تجري دون علمنا ونحن وزراء..

قال أحمد مداعبا:

-ألا يحسن بي أن أبقي رأسي عاريا كالحقيقة في مثل هـذه الظـروف.. لماذا تريد لي أن أكون كما قال الشاعر:

ويرد عفرته الى يافوخه

حتى تصير لرأسه إكليلا

-انك ستشقى يا أحمد.. ولن أزيد..!

-الشقاء يا عبد الوهاب أن ينافق الإنسان الأقوياء بباطلهم، ويرمي سلاحه لمقاومتهم.. أن يقول لخصمه أنت على حق وأنا على باطل.. أنا أقـوى مـنهم جميعا، في ضعفي وقلة حيلتي، وأنا مهدد في حياتي وأمنـي ورزق عيـالي.. أشعر بالرضى عن نفسي.. وليس في هذا شقاء!

-نحن نحتمل الأمرين من أجل هذه الوحدة التي لا نريد لهـا أن تنفـصم، لأنها أمل الجماهير الذي تحقق!

-للأسف! خدعنا جميعنا عن طريق أنبل عواطفنا..

-اختف يا أحمد.. لست آمن عليك منهم..

-مللت الإختفاء.. ليس السجن أسوأ من الإختفاء.

-انها أسوأ مما كانت عليه في الدكتاتوريات السابقة!

-لكل شيء نهاية!

* * *

وحدهم على الدرب

-كنت أعلم أنه سيرفض.. انه رجل صعب غير مرن، ولكنه سيدفع غاليا ثمن هذا الرفض.. أتحت له الفرصة وفرشت دربه بالورود.. في سبيل من يلبس اكليل الشوك؟ سحقا للشعب من أوله لآخره.. كلهم يشرون ويباعون.. أنظر اليهم يهتفون، بعضهم بخمس ليرات وآخر بخمس وعشرين.. كسبنا الفلاحين بكيس طحين أمريكي.. إذهب الى بيوتهم وسترى صورة الرئيس معلقة على جدرانهم المهلهلة.. هذا هو شعبنا.. بيدي هذه نثرت الملايين كي نحافظ على الوحدة..

-ولكن يا حضرة المقدم، ألا ترى أن هناك حقدا شعبيا يتعاظم يوما بعد يوم في دمشق؟

-أعلم أن هناك من يحقد علينا.. مثاليون كأخيك يسيرون على الدرب وحدهم.. ومع ذلك، أقسم لك بشرفي أنني حزنت لمقتل بعضهم تحت التعذيب.. انني لا أحب أن تبلغ الأمور هذا الحد.. فألطخ بالأوحال.. ستقع على رأسي كل الجرائم التي تقترف في هذا العهد لو انفصمت الوحدة.. وأنت تعلم أن جهاز مخابراتهم أصبح يتجسس على مخابراتي.. انهم لم يعودوا يثقون بأي سوري.. وأنا نفسي لم أعد أثق حتى برجالي، ولست أدري من يتجسس علي!

-من كان يظن أن آمالنا بالوحدة ستفجع هكذا بفقـدان الثقـة.. كـم كنـا متفائلين!

وما لبث أن ندم على ما بدر منه اذ خشي أن يكون المقدم حميد يستدرجه للإيقاع به.. فأردف:

-ليست الأحوال سيئة الى هذا الحد.. ألـم تخبرنـي أن الحكـم سـيغير اتجاهه؟.. لا بد وأن أخطاء صغيرة تقع، ولكن الوحدة يجب أن تبقـى لأنهـا قضية مصيرية..

-أتبقى على ولائك للوحدة لو اعتقل أخوك؟

-أبقى! ان الأمر ليس مرتبطا بفرد ولو كان أخي.. ولكنني لا أجد مبررا لذلك.. جئت اليك لتجد له طريقا وسطا فيخرج الى لبنان، حيـث يجـد عمـلا وزوجته هناك ريثما تصلح الأمور..

-انتظر لحظة! وأخذ يبحث في درجه عـن شـيء وناولـه ورقـة مـن المخابرات المصرية، وقال:

-هناك أمر باعتقاله لو رفض التعاون!

واربد وجه عبد الوهاب، وقال متجهم الوجه:

-ليس هذا التصرف سياسة حكيمة في هذه الظروف الحرجة..

-وهذا رأيي أيضا أنا الآخر.. ماذا أستطيع أن أفعل له؟

-ليخرج من البلد بجواز سفر مزور..

-هذا عسير..

-ليس من أمر عسير عليك..

-قلت لك أن جهازي تحت المراقبة..

-لا بد أن بينهم من تثق به..

-أترك الأمر لي..

* * *

غادر في الحال

كانت مها تعيش حالة قلق رهيب، وتلمح أحمد بعينيها وهو واجم مستغرق في التفكير، فيتعسها أنها لاتملك أن تدفع عنه الأذى ولا تملك حتى مـشاطرته عذابه.. فلم يكن بعد قد عاد الصفاء بينهما الى عهده.. واحتجز كل منهما آلامه في صدره.. ونظرت مها اليه مرتين وهي ترضع همام فأشاح بوجهـه وأخـذ يصغي الى المذياع ينقل أصوات المتخاذلين المرتجفة وهم ينسحبون من الحزب ويشتمون من غرر بهم.. لوأن عزيز يصل من المدرسة فيذيب بابتسامته العذبة حاجز الجليد بينهما.. لو تدري أي شيء يجول في ذهنه فـي تلـك اللحظـات الحاسمة ولماذا لا تستطيع أن تعانقه وتنقل له حرارة قلبها وعمق ايمانها بـه، ولماذا لا تستطيع أن تقول له الكلمات المشجعة في حزنه وفي خيبة أمله.. كان يجلس مصغيا كأب أفنى زهرة شبابه في تربية أبنائه ليكتشف عقوقهم وميوعة أخلاقهم، وكأستاذ يشهد نتائج طلابه المخيبة! وغمغم:

-انهار كل شيء.. فشلت كأستاذ ومرب!

- كل ما يجري بسبب صفا.. لاأعطاه الله العافية! ينخر في كيانكم عشرين عاما دون أن تعرفوه..

-ألم أستشفّ سريرته من قبل؟ ولكن من كان يسمع لي؟ يقـرب لنفاقـه، وأبعد لصراحتي.. لا ديموقراطية في الحزب! حين نتخطى هذه المحنـة لـن نسمح للنقد الذاتي أن يمطر علينا من الأعلى.. كنا نقدر أن نغسل الطلاء عـن الوجوه المزيفة، قبل فوات الأوان!

-الأمر الملح الآن كيف نتخطى هذه المحنة.. قادتكم وجدوا أمنهم وراحتهم في الغربة الاّ أنت ياأحمد..!

وأخذت دموعها تهمي من عينيها دون أن تملك كبتها..

-الى أين أذهب يامها؟ ليس هناك مكمن سري لنا لا تدري به المخابرات..

ولا شك أنني مراقب الآن في حركاتي وسكناتي.. فـان كـانوا يريـدون القبض علي فلن يتعذر عليهم.. ان ضماني الوحيد أن الحكـم يمرفـي أزمـة فينشغل عني.. وبقائي أيضا يشجع الرفاق!

رن جرس الباب، فأحست مها بأطرافها تثلج.. هل أتوا لاعتقاله؟ ووضعت طفلها في سريره وفتحت.. كان القادم عبد الوهاب.. قال لأحمد وهو يـستريح على مقعد:

-صدر أمر باعتقالك.. يجب أن تغادر البلد في الحال.. لقد حـصلت لـك على جوازسفر مزور باسم خليل زحلاوي..لا أستطيع الخوض في تفصيلات.. اذهب أنت وأسرتك في الحال.. تلفنت لعمتنا في بيروت بأنك قادم!..

-وكيف نعيش؟ ولن نضمن العمل عاجلا..

-سنجد حلا لهذا بعد أن تخرج.. هيا ياأحمد! لا تضع الوقت! وأخرج عبد الوهاب كدسة من الأوراق النقدية وقال:

-دبر بها أمرك العاجل.. واستدرك خوف أن يرفضها أحمد:

-انها حقك.. ترك والدنا مبلغا في المصرف وهذه حصتك منها..

أسرعت مها في ملء حقيبة بالثياب الضرورية، وأخـرى تحملهـا هـي لحاجات الصغير ولم تمض نصف ساعة حتى كان الجميع قد تهيؤوا للخروج.. وحملهم عبد الوهاب الى الكاراج.. وكانت مها طوال الطريق تنبه عزيز أنه ان سئل عن إسم أبيه يقول "خليل الزحلاوي!" وهمس أحمد في أذنه "إسمك فـؤاد خليل الزحلاوي!" لاتنس!.. فيهز رأسه ويتمتم الإسم مرات بينه وبين نفـسه.. ماكان يدري ما يدور حوله، ولكنه يدري بإحساس طفل صادق الحدس أن ثمة خطر يتهدد والده عند الحدود.. وأن هذا الخطر يزول ان حفظ الإسم جيدا ولـم ينسه..

* * *

الأثـــاث

كان المقدم حميد ينتظر في بيته وصول الشاحنات التي تحمل له الأثـاث الجديد الذي اشتراه من ايطاليا لشقته الجديدة.. وأخذ يقلب الفاتورة التي أرسلت من الجمرك مغيظا:

-خمس وعشرون ألف ليرة تكاليف جمارك!

كان يحادث زوجته، ولكنها كانت مشغولة عنه بارتداء الثياب الفاخرة التي وصلت منذ قليل من باريس وأخذت تقيسها الواحد تلو الآخر وقد أخذها العجب بما أضفته عليها من محاسن مثيرة للإعجاب وهي تفكر في أي منهـا تختـار لحفلة تلك الليلة..

كانت امرأة جميلة، ولكن كان في عينيها نظرة سكرى لا مبالية.. لقد أتعس الخمر وعيها فتجلس بين الناس تحدق بهم ولا تراهم.. وكان من يتطلّـع اليهـا يشعر أنها تحضن هما وقلقا في أعماقها تخدرهما بالإسـراف فـي الـشراب والإسراف في الزينة.. لقد ألقى بها حظها بين يدي المقدم حميد وهـو بعـد لا يزال صغيرا في رتبته، وكان في نيته أن تكون علاقته بها عابرة، ولكنه حـين قفز الى الصفوف الأولى خشي قيلة الناس فتزوجها وهو يبكي!.. كان متـرددا في أمرها، فلما استقرت علاقته ارتاح وهدأت نفسه.. ولكن كـان مـا بينهمـا مزيجا من الرغبة والريبة.. وكانت من ناحيتها دائمة الخشية أن يتركها فتصبح وحيدة في عالم ذئبي، فتتغاضى عن عيوبه وقسوة طباعه وتذبذبـه وجبنـه.. وحين تذكر الفتاة الحساسة التي كانتها قبل التعرف اليه تغـرق بالمزيـد مـن الشراب حتى يتبلّد احساسها، وتكتفي بمتعة حاضرها ومجد زوجها..

أمسك المقدم حميد بالهاتف وطلب الأستاذ بشير الذي أصبح مديرا عامـا للجمارك وقال:

-لقد أرسلت لي فاتورة من الجمرك بمبلغ خمس وعشرين ألفا.. سـأبعث لك بالمعاملة فدبر الأمر بمعرفتك وافرجوا عن الشاحنات التي تحمل الأثـاث، فأنت تعلم أنني أستقبل سفراء أجانب في بيتي، فالأثاث هو للصالح العام قبل أن يكون لنفعي الخاص..

وضرب الأستاذ بشير بيده على الطاولة بعد أن وضع الـسماعة، وقـال محدثا الفراغ حوله:

-يرسل لي معاملة الجمرك كأنما أنا مخلّص جمارك! وزير وباطجي فماذا أفعل؟ معتاد والله والده على الجلوس على كنبات الستيل من ايطاليا!

التفت المقدم حوله وابتسم.. كان خياله يتوثّب من الأستاذ بشير الى أحمد.. وجمدت الإبتسامة على شفتيه.. كيف لو كشف أمر جواز السفر المـزور.. ان أحمد في طريقه الى الحدود الآن، وقد يمر بسلام، ولكن كيف لو عرفـه أحـد وقبض عليه؟

وأحس بالرعب يرعش قلبه تماما كما ارتعش يوما حين مزح معه أحمـد في ميدان الرمي للتدريب بأن هناك طائرة يهودية محلّقة وكانت نجمة.. فأصابه الذعر الذي ملك عليه أنفاسه.. انه يعرف عنه أكثر مما ينبغي، فلمـاذا يغـامر بمستقبله اللامع من أجل صديق قديم يدرك أغواره ولا يحمل له الإحترام؟ شاء في لحظة تبجح أن يكون له على أحمد فضل، ولكن تلك الومضة انطفأت فجأة، ولم يعد يغمر أعماقه سوى ظلام الخوف أن يكتشف الأمر فيكلفه غاليا..

أمسك بسماعة التلفون، وطلب ضابط أمن الحدود:

-إقبضوا على خليل الزحلاوي لأنه يحمل جواز سفر مزور..